

الدرس الرابع عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال المؤلف الإمام رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح وللسامعين :

ولهما عنه مرفوعاً : ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجِ الْبَهِيمَةُ بِهَيْمَةٍ جَمْعَاءَ هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا ثُمَّ قَرَأَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠])) متفق عليه .

قال المصنف رحمه الله : ((ولهما)) أي البخاري ومسلم ((عنه)) أي ابن عباس ((مرفوعاً)) أي إلى النبي صلى الله عليه وسلم . قال : ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ)) هذا أحد ألفاظ هذا الحديث ، وقد جاء بألفاظ متقاربة ؛ منها هذا اللفظ الذي أورده المصنف ، ومنها اللفظ المشهور ((كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ)) ، وجاء أيضاً بلفظ : ((لَيْسَ مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ)) ، وجاء في بعض الألفاظ ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْمِلَّةِ)) . والحديث يدل على أن جميع بني آدم يولدون على الفطرة ، على الملة ، على الحنيفية ، على الإسلام ؛ كلهم يُفْطَرُونَ أي يُخْلَقُونَ مجبولين على ذلك ، الفطرة : الجبلة التي يُخْلَقُ عليها الإنسان ويوجد عليها وهي الإسلام .

وقد دل على أن الفطرة هي الإسلام الآية التي جعلها المصنف رحمه الله عنواناً لهذا الباب ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠] فوصف الفطرة بأنها الدين ، كذلك بعض روايات هذا الحديث ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الْمِلَّةِ)) فهذه رواية مفسرة ، كذلك حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه أنه قال : ((خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلُّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ)) فقلوه «حنفاء» وقوله «عَنْ دِينِهِمْ» هذا يدل على أن الفطرة المراد بها الإسلام ، ولهذا جماهير أهل العلم على ذلك ؛ على أن المراد بالفطرة الإسلام ، بل حكاها ابن عبد البر إجماعاً عن أهل العلم .

فقلوه : ((كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ)) أي يولد على الإسلام ، يولد على الملة ، يولد على الحنيفية ، يولد على الإخلاص ، يولد على الاستسلام لله تعالى ، يولد على النفور من الشرك ؛ كل مولود يولد على هذه الفطرة ، وما

يحصل له من تغيرٍ وتحول بعد ذلك ليس أمراً ولد عليه وجُبل عليه بل هو طارئ ، فالشرك طارئ على الإنسان وهو تغير في فطرته كما أن الشرك طارئ على البشرية ، كان الناس على التوحيد ، آدم وذريته كانوا على التوحيد لا يعرفون شركاً فُطروا عليه وجُبلوا عليه ولا يعرفون شركاً أصلاً ، يولدون على التوحيد وينشئون عليه وليس أمامهم وبينهم شرك ، ثم بعد ذلك اجتهد الشيطان في اجتيال الناس عن التوحيد الذي هو الأصل إلى الشرك الذي هو طارئ ، فكما أن الشرك طارئ على البشرية وليس هو موجودٌ معهم في ابتداء الأمر بل كانوا قروناً على التوحيد ؛ فكَذلك الشرك طارئ على فطر الناس وعلى آحاد الناس وأفرادهم ، فكل مولود يولد على الفطرة سليماً ؛ فإذا حصل فيه تبذُّل إلى يهودية باطلة أو نصرانية منحرفة أو وثنية مشركة أو غير ذلك من الأديان ، فهذه الأديان المحرفة الباطلة الفاسدة لم تولد مع الإنسان وإنما طرأت عليه بمحيطة ووالديه ومجتمعه ؛ وإلا أصله ناشئ على الفطرة التي هي الإسلام ، قال عليه الصلاة والسلام : ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ)) ، وجاء في بعض الأحاديث ((كُلُّ بَنِي آدَمَ)) هذا ليس مختصاً بأبناء المسلمين ؛ بل كل بني آدم يولدون على هذه الفطرة ، ولهذا قال عن أبناء اليهود في الحديث نفسه : ((فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ)) يعني أبناء اليهود يولدون على الفطرة ، أبناء النصارى على الفطرة ، أبناء المجوس على الفطرة . قال : ((فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)) ولم يقل يُسَلِّمَانِهِ لأنه يولد على الإسلام ، فذكر الأديان المنحرفة الباطلة التي يحول إليها عن الإسلام الذي فطر عليه وجُبل عليه .

قال : ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ)) : أي إلا على الملة كما جاء في بعض الروايات ، والملة هي الإسلام ؛ الحنيفية السمحة ، والمراد بالإسلام هنا ليس تفاصيل الإسلام وتفاصيل الشرائع ؛ فهذه لا تُعرف بالفطرة ولا يوصل إليها بالفطر المجردة ، وإنما المراد بالفطرة هنا : الحنيفية التي هي البراءة من الشرك والإخلاص لله والاعتراف بأنه وحده ﷻ المستحق للعبادة والاستسلام له ﷻ والخضوع ؛ فهذا الإسلام فطر الناس عليه ، أما تفاصيل شرائع الإسلام فهذه لا سبيل إلى العلم بها إلا من طريق الوحي ، ولهذا قال الله ﷻ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ [الشورى: ٥٢] ، يقول الله ﷻ لرسوله ﷺ ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ !! وهو عليه الصلاة والسلام ولد على الفطرة ولم يحدث لفطرته أي تغير ، حفظه رب العالمين وسلّمه ، مع أنه عاش في مجتمع عاش على الشرك بالله والتنديد وعبادة الأصنام ولكن الله ﷻ حفظ فطرته وسلّمها ولم يدخل عليه شيء من عقائدهم وشركياتهم ، ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله : «من قال أن محمداً ﷺ كان على دين قومه فقد أعظم الفرية» ؛ ما كان على دين قومه ولم يقع في شيء مما وقعوا فيه ، بل بقيت فطرته سالمة ، مع أنه عاش في مجتمع متضمخ بالشرك والباطل إلا أنه حفظه رب العالمين من ذلك فنشأ محفوظاً فطرته عليه الصلاة والسلام من الشوائب والانحرافات ، ثم يقول الله ﷻ له : ﴿ مَا

كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴿٧﴾ ، فما المراد بالإيمان الذي لا يدري عنه عليه الصلاة والسلام حتى نزل عليه الوحي ؛ ونحن عرفنا أن الفطرة هي الإسلام ؟

قال العلماء : تفاصيل الشرائع ؛ الصلاة المكتوبة خمس مرات في اليوم والليلة ، صلاة الظهر أربع ، العصر أربع ، صيام شهر رمضان ، إلى غير ذلك من الفرائض ؛ هل للفطرة سبيل أن تعرف هذه التفاصيل ؟! لو حُلِّي بين الإنسان وبين فطرته لم تحوّل ولم تبدّل هل له سبيل أن يعرف هذه التفاصيل بالفطرة ؟ الجواب : لا ليس له سبيل إلى ذلك ، فلا تُعرف تفاصيل الشرائع إلا بوحي الله ﷻ ، ولهذا قال: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ . وهذه الآية توضح لنا قوله ﷻ في سورة الضحى ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٧] ، ليس معنى ﴿ ضَالًّا ﴾ أي على دين قومه ، كما سبق بيان بطلان ذلك من كلام الإمام أحمد رحمه الله ، كذلك في كلام غيره من أهل العلم ؛ وإنما المراد بـ﴿ ضَالًّا ﴾ : أي عن تفاصيل الشرائع ، فهو عليه الصلاة والسلام لم يهتد إليها ولم يعرفها إلا بالوحي الذي نزل به الله تبارك وتعالى على قلبه ، ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥] ، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يقول: ﴿ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾ [الأنبياء: ٤٥] كما أمره الله جل وعلا.

قال : ((مَا مِنْ مَّوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ)) هنا ذكر التحول عن الفطر كيف يكون ؟ كيف يحصل للإنسان أن يتحول عن فطرته وأن يُجتال عن الدين الذي فطر عليه ؟ بين ذلك عليه الصلاة والسلام ؛ قال: ((فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)) ، وذكر هذه الثلاث ليس على سبيل الحصر وإنما على سبيل التمثيل ؛ تمثيلاً للانحراف بأشهر المذاهب والأديان المنحرفة وأبرزها ، وإلا كل الأديان المنحرفة والعقائد الباطلة والمذاهب الفاسدة حتى أيضاً هذا الحديث يتناول المذاهب الفاسدة المنتسبة للإسلام ، فالتحول الذي يحصل للفطر والتغير الذي يحصل لها بالعقائد الفاسدة مع بقاء صاحبها منتسباً للإسلام هذا أيضاً يتناوله الحديث ، بتحول الإنسان عن فطرته إلى مذهب منحرف فاسد منحرف مصادم للدين الذي بعث به النبي عليه الصلاة والسلام حتى وإن انتسب صاحبه إلى الإسلام فالحديث يتناول ذلك ؛ لأنه داخل في جملة الانحراف عن الفطرة التي فطر الله ﷻ الناس عليها .

فيذاً قوله: ((يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)) هذا خرج مخرج التمثيل وليس الحصر ، وإلا فالأمر يتناول كل إبعاد للإنسان عما جُبل عليه العبد ، ولهذا جاء في حديث عياض الذي تقدمت الإشارة إليه وذكره قال الله تعالى: ((خَلَقْتُ عِبَادِي خُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاِجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ)) ؛ لاحظ هنا قضية التحول

عن الفطرة ، أو تحديداً لاحظ عوامل التغير عن الفطرة من خلال الحديثين : حديث عياض فيه ((أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ)) ، والحديث الذي معنا في هذا الباب قال : ((فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ)) ، فهذان عاملان للتحويل عن الفطرة : الأول : الشيطان ؛ ولهذا لا يلزم أن تتحول فطرة الإنسان عن التوحيد أن ينشأ بين أبوين يهوديين أو نصرانيين أو مجوسيين ، فقد ينشأ الإنسان في مجتمع مسلم وبين أبوين مسلمين ثم -والعياذ بالله- تحتاله الشياطين عن دينه ، ولا يكون أخذ الدين الباطل من أبويه وإنما أخذه من مصدر آخر .

فإذاً قوله : ((فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ)) ؛ ذكر الأبوين هنا لأنه الأغلب في انحراف من ينحرف ؛ لكونه ينشأ على ما كان عليه أبواه كما قيل : «وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الْفِتْيَانِ مِنَّا عَلَى مَا كَانَ عَوْدُهُ أَبَوْهُ»

فالولد ينشأ يحاكي والده ، ولهذا يقولون "الولد سر أبيه" ، يحاكي والده ويقلد والده في حركته وفي مشيته وفي حديثه وأيضاً في قناعاته بالخطأ الذي يرتكبه والده ، لأن معزة الوالد ومكانته في النفس تجعله إما أن يتقبل أخطاء الوالد ، أو يحمل أخطاء الوالد على محامل يرى أنها حسنة وجميلة ، وينشأ على ما عوده عليه والده ، لأنه ينشأ في هذه الحياة بين هذين الأبوين فيصعب عليه أن يخرج عن الشيء الذي نشأ عليه في البيت الذي نشأ فيه وترى .

فلأن الغالب في الانحراف والتحويل في الفطر على يد الوالدين الكافرين قال : ((فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ)) ؛ وإلا الأقارب أحياناً ، والمجتمع أحياناً ، والوسائل الأخرى للانحراف ؛ هذه كلها عوامل تشكل خطورة على فطر الناس في حُرْفهم عن دينهم وعن الفطرة التي فطروهم الله ﷻ عليها إلى حيث الفساد والضلال والخرافة والانحراف والأوهام ، ولا يسلم من هذا الانحراف في البشرية إلا القليل ، قال تعالى : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] ، مع أن الجميع يولدون على الفطرة إلا أن الأكثر ينحرف عنها ولا يسلم إلا القليل ، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾

[ص: ٢٤] ، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سج: ١٣] ؛ فالقليل هو الذي يكتب لفطرته السلامة .

ولهذا مر معنا قريباً ما يستحب للمسلم أن يقوله كل صباح وكل مساء ؛ استحضر الفطرة وسلامتها ((أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)) وفي المساء يقول : ((أَمْسَيْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ..)) ، فيومٌ يصبح فيه العبد على الفطرة السليمة وعلى كلمة الإخلاص وعلى دين محمد ﷺ وعلى ملة إبراهيم غير مبدل ولا محرف ولا مغير خير يوم ، خير يوم للإنسان هو هذا اليوم الذي يكون فيه باقياً على الفطرة لم يتحول ، ويجدد كل يوم هذا الثبات على الفطرة ولزومها وعدم الانحراف عنها ؛ ((أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ)) ؛ وفطرة الإسلام : هي كلمة الإخلاص ، هي دين محمد ﷺ ، هي ملة إبراهيم . وهذا الحديث من الأحاديث العظيمة التي تبين معنى الفطرة من جهة ، وتبين ضرورة ومسيب الحاجة إلى المحافظة عليها ، وأن المحافظة على الفطرة تحتاج إلى تعاهد يومي ؛ بل تحتاج مبادرة في صبيحة كل يوم أن يستذكر

الإنسان الفطرة ، لا يكفي في موضوع الفطرة أن نجلس يوماً نتذكر أهميتها وعظيم شأنها وضرورة الحاجة إليها بل لابد من استذكار يومي لها وعناية مستمرة دائمة بها كما يرينا على ذلك هذا الذكر العظيم الثابت عن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه .

إذاً عوامل صرف الناس عن الفطرة ليس الأبوان فقط ، وذكر الأبوين في هذا الحديث لكون ذلك هو الأغلب ، وإلا الأخوال والأعمام والقراة والجيران والأصدقاء ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ((الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ)) ؛ فالخليل إذا كان فاسداً منحرف الفطرة يحرف من يخالله ، وسليم الفطرة سليم الدين لا يُنصح بمجالسة من كان منحرفاً لأنه يؤثر عليه .

عَنْ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ إِنَّ الْقَرِينَ بِالْمُقَارِنِ يَفْتَدِي

يؤثر القرين في قرينه ، ولهذا قال الحسن : "ليس للمرء أن يمشي مع من شاء" ، ولهذا أيضا يقولون : "الصاحب ساحب" لأنه يؤثر في صاحبه. وإذا كان القرين الفاسد يشكّل خطورة بالغة على قرينه في حرفة عن فطره فماذا يقال في القنوات الفضائية والشبكات العنكبوتية التي يجلس أمامها بعض الناس وبعض الشباب وبعض الشابات الأوقات الطوال!! وهي تحمل صنوف الفساد وأنواع الشر ثم يجلس أمامها بدون ضابط شرعي وبدون علم يزعم وبدون دين قوي يردع ثم يدخل في مواقع الشبهات ويدخل في مواقع الشهوات وفي الوقت نفسه يريد لنفسه سلامة!!

أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مَكْتُوفاً وَقَالَ لَهُ إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَغِيَ بِالْمَاءِ

لا يمكن لمن يمشي في الوحل ويسير فيه ويريد لنفسه سلامة ونقاء!! هذه المخاطر التي تحصل الآن هي من الروافد والعوامل المخلخلة لفطر الناس والمزعزعة لإيمانهم والمفسدة لأديانهم والمبدلة لأخلاقهم وآدابهم ؛ ولهذا الفطرة تحتاج إلى رعاية وإلى عناية وإلى حفظ حتى تبقى سليمة من التغير والتبدل والانحراف .

فعندما نقرأ هذا الحديث ((فَابْوَاهُ يَهُودَانِهِ)) لا يقف الإنسان موقفاً خاطئاً في فهمه للحديث ويقول : "الحمد لله أنا في بيت أبوي مسلمان مصليان محافظان يدعوان الله ، وأنا لو مارست هذه الأمور أو وقفت لن تؤثر عليّ لأنني في أبوين مسلمين ففطرتي لن تتبدل" ؛ هذا فهم مغلوط للحديث ، فذكر الأبوين هنا لأنه الأغلب ، وإلا كم من انحراف حصل لأناس ولدوا بين أبوين مسلمين صالحين ، ومن الشواهد على ذلك في القرآن ابن نوح عليه السلام ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود:٤٦] ؛ ابن نوح نشأ عند نوح عليه السلام ، والانحراف الذي حصل لفطرته جاءه من طريق آخر ؛ إما من طريق أمه الكافرة ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَاتَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَاتَمَهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]

، أو من طريق مجتمعه الذي هو نشأ فيه ، لكن والده ليس نبياً فقط بل من أولي العزم من الرسل صلوات الله وسلامه عليه وعلى رسل الله أجمعين .

فالفطرة تَبْدُلُهَا وتَغَيِّرُهَا قد يكون من الأبوين هو الغالب ، وقد يكون من طرق أخرى وهي تحتاج إلى رعاية متواصلة وعناية بها مستمرة في كل يوم ، ويرشد إلى ضرورة هذه العناية المتواصلة الذكر والدعاء الذي أشرت إليه والذي يستحب للمسلم صبيحة كل يوم أن يأتي به ، إتيانه به تجديد للفطرة وتذكير للنفس بها وضرورة المحافظة عليها ورعايتها وحفظها من التبدل والتغير .

قال: ((فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمُجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجِ الْبَهِيمَةُ بِهَيْمَةٍ جَمْعَاءَ هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا)) ؛ هذا ضربٌ مثال لتوضيح الأمر ، وبالمثال - كما يقولون - يتضح المقال ، والأمثلة تُضرب لتبيين المعاني وجعلها بمثابة الأمور المحسوسة المشاهدة الملموسة ، فولادة الإنسان على الفطرة ثم تغييره عنها وانحرافه هذا المعنى يوضحه هذا المثال ؛ بحيث تقرأ المثال وكأنك تنظر إلى المعنى الذي يوضح لك في هذا الحديث . قال: ((كَمَا تُنْتَجِ الْبَهِيمَةُ)) ؛ تُنْتَجِ : أي تولد البهيمة .

((بَهِيمَةٌ جَمْعَاءَ)) يعني مجتمعة الأطراف مكتملة الأطراف ، عندما تراها للتو مولودة لا ترى فيها أذنًا مقطوعة ولا يداً مقطوعة ولا ذنباً مقطوعاً ولا عيناً مفقوعة إلى غير ذلك ، ترى أطرافها سليمة أعضائها سليمة ، ثم فيما بعد إذا رأيت في أذنها قطع أو قدمها مبتورة أو ذنبها مقطوع أو نحو ذلك هل هذا أمرٌ وُلدت عليه أم أنه طارئٌ وله سببٌ وُجد به ؟

قال هنا في الحديث: ((حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا)) يعني أنتم الذين يحصل منكم هذا الذي يكون فيها من قطع أذن أو طرف أو قدم أو ذنب أو غير ذلك وإلا هي تولد سليمة .

فهذا مثال ضربه عليه الصلاة والسلام لتوضيح هذا المعنى ، فالمولود يولد على الفطرة أي مجتمع ليس فيه انحراف ، الانحراف لا يولد معه ؛ سواءً من الانحراف الانحراف العقدي أو كذلك الانحراف الأخلاقي هذا لا يولد مع الإنسان ؛ الانحراف العقدي لا يولد مع الإنسان ، والانحراف الأخلاقي لا يولد مع الإنسان . للتوضيح أقول : الكذب ، الخيانة ، الغش ، التدليس ، الظلم ؛ كل هذه لا تولد مع الإنسان ، وانظر في أكبر ظالم حي أو مات لم يولد ظلّمه معه ، مهما بلغ ظلّمه ومهما بلغ غشه ومهما بلغ كذبه هذا كله لم يولد معه ، وُلد على الفطرة ، وُلد لا يعرف كذباً ولا يعرف غشاً ولا يعرف ظلماً ((كُلُّ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ)) ، وهذه الأشياء كلها توجد بعد ، لم تولد معه ، أكابر الظلمة أكابر الفسقة أكابر الكذابين أكابر الغشاشين كل هؤلاء على مد التاريخ ليس منهم واحد وُلدت معه هذه الأشياء بل هي طارئة تطرأ على الإنسان ، ولهذا النبي ﷺ رعى فطر الناس والأطفال حتى في هذه الجوانب ، وجاء عنه النهي ﷺ أن يقال للطفل تعال خذ ولا تعطيه شيء ، وهذه يفعلها كثير من الناس ؛ يريد أن يقبَل طفلاً أو يداعب طفلاً صغيراً عمره سنة أو سنتين يقبض يده ويقول "تعال خذ" يوهمه أن في يده

حلولي مثلاً أو لعبة ، ويأتي هذا الصغير يريد أن يأخذ ثم يفتح اليد ولا يرى فيها شيئاً ، لماذا نهي النبي ﷺ عن ذلك ؟ لأن هذا العمل يحرف فطرة الطفل ويدخل عليها الكذب ، الكذب لم يولد مع الطفل ، الذي ولد معه الصدق ، الذي ولد معه الوفاء ، الذي ولد معه الأمانة ، الذي ولد معه العدل ، وهذه أشياء طارئة وتوجد فيه ، الآن عندما ترى طفل ثلاث سنوات أو أربع سنوات أو خمس سنوات - وهذا يوجد أحياناً - وتجده كثير الكذب أو يغش هذه لم تولد معه ، مع أن مدة عمره قصيرة وكذبه كثير ! هذا الكذب الذي عنده لم يولد معه ، فتش وترى السبب ؛ إما أب أو أم أو أخت أو خال أو عم أو جار أدخلوا عليه .

ويعظم انحراف الصغير عندما يزداد تعلقه بالكبير وحب له ، لأن هذا يفتح له باب القدوة ، فإذا كان والده يكرمه ويحبه ويحسن إليه ثم يرى في والده أخلاقيات فاسدة يتقبلها بسرعة ويأخذها بسرعة عن والده ، وأي خطأ يكون عليه والده يجد له مبررات ، قرأت مرة -وآلني كثيراً- عن أحد الأطفال رأى لوحة فيها تحذير من الدخان «الدخان داء قاتل يفضي بصاحبه إلى الموت» أو عبارة نحو هذه العبارة ونظر إلى اللوحة ووالده من المدخنين بشرهة ، وهنا وصفتُ للدخان بأنه داء قاتل يفضي بصاحبه إلى الموت ووالده يدخن بشرهة فقرأ اللوحة وقال : "لكن والدي يدخن كويس" ، هذه أشياء تنشأ مغالطات في النفس وتغيرات في داخل الإنسان ، ثم أيضاً تحوّل في المقاييس ووزن الأمور على وفق ما نشأ عليه الإنسان في المجتمع الذي وُجد فيه أو بين الأبوين ، ولهذا عظمت المسؤولية على الأبوين تجاه الأبناء ، وقد قال عليه الصلاة والسلام مؤكداً هذا الأمر : ((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ)) هذه مسؤولية ، ومعنى مسؤولية : أنه سيقف أمام الله ﷻ ويسأله ، وفي القرآن قال ﷻ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦] . حفظ فطر هؤلاء الصغار وإبعادها عما يلوثها هذه مسؤولية عظيمة ، أحياناً يأتي بعض الآباء من باب التوسعة على الأبناء والترفيه إلى غير ذلك من المعاني ويدخل عليهم أشياء تفسد فطرتهم وتجتاهلهم عن دينهم ثم ينشأ في أبناءه أخلاقيات وعقائد وأنواع من الفساد وهو الذي زرعها لهم بما جلبه إليهم ، وهناك وعيد شديد ثابت عن النبي ﷺ في حق من مات وهو غاش لرعيته ؛ لم ينصح لهم ، لم يجهد لهم في إصلاحهم في إبعادهم عن الانحراف ، فهذه مسألة عظيمة جداً .

وهذا الحديث هو من الأحاديث العظيمة التي تعين الإنسان على موضوع هذا الباب؛ وهو إقامة الوجه للدين ﴿فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ ؛ لا يتم ذلك إلا بحفظ هذه الفطرة ورعايتها وصيانتها وإبعادها عن كل ما يحرفها . والعلماء رحمهم الله أخذوا من هذا الحديث فائدة عظيمة جداً وأيضاً مُفرحة مبهجة في الوقت نفسه للآباء وللمربين وللدعاة وهي : أن التربية على الإسلام هي بناء على أصل موجود ؛ الذي يربي أولاده على الإسلام يبنى على أصل موجود ، أما الذي يحرف في تربية أبنائه عن الإسلام هذا ينقلهم إلى شيء لا أصل له موجود ،

ولهذا قبول الطفل الذي وُلد على الفطرة للصدق ، للوفاء ، للأمانة ، لحُسن المعاملة ، للأخلاق الكريمة يقبلها بارتياح لأنها هي أشياء مفطور عليها ، أشياء مجبول عليها ، قبوله للعقائد الصحيحة للإيمان الصحيح هذه أشياء جُبل عليها ، عندما يُزرع فيه عقيدة فاسدة أو خُلِقَ فاسداً يبدأ القلب في مرحلة صراع لأن هذا شيء يصادم فطرته ، فيبقى في مرحلة صراع ؛ فيه عوامل تدفع للانحراف وفيه أصول تمنعه منه ، وهو لأيهما غلب ، قد يكتب الله ﷻ له حفظاً لفطرته ، قد يكتب الله له من يحسن تربيته لتبقى فطرته سليمة ، قد يقيض الله ﷻ له أبواباً من الهداية والصالح والاستقامة ، وقد يتلى بعوامل شديدة متواصلة تحرفه عن هذه الفطرة . ولهذا هذا أمرٌ ينبغي أن يُعلم وهو : أن التربية على الإسلام ليس حشراً لأُمور تصادم أصل الإنسان، وإنما هو بناءٌ على أصول قائمة في الإنسان وثابتة فيه ، أما حَرْف الإنسان عن الفطرة إلى عقيدة فاسدة أو إلى أخلاق فاسدة أو نحو ذلك هذا نقلٌ له عن شيء لم يُجبل عليه ولم يفطر عليه . فهذا يستفاد منه فائدة - كما قلت - أن التربية على الإسلام ليست شاقة .

وأيضاً أفيدكم في هذا : أن من يربون أبناءهم على العقائد الباطلة يحتاجون إلى أنواع من الكذب حتى يضطر هذا المولود الذي عندهم إلى التحول ، مثلاً في بعض المذاهب وبعض الأديان تجده يسرق من طفله شيئاً ويخفيه عنه ويظل يبكي ويبقى فترة حزيناً ما وجده ثم يأتيه به ويقول من جاء به ؟ يقول هذا فلان جاء به ؛ حتى يغرس فيه ماذا ؟ يقول هذا عيسى هو الذي جاء لك به ، وعيسى هو الذي دائماً ينقذنا ، ثم يسرق له شيء آخر وهكذا . وأيضاً فيمن ينتسبون إلى الإسلام ويعظّمون أشخاصاً باسم الولاية أو اسم الإمامة أو نحو ذلك ويعطونهم من خصائص الله ويريدون ربط صغارهم بهذا يكذبون مثل ذلك . ثم إذا أرادوا أيضاً حشر نفوس هؤلاء الصغار ضد بعض الأخيار وضد بعض الأفاضل يسرق منه الشيء فيظل الطفل يبكي ، فيقولون له على سبيل المثال هذا أبو بكر هو الذي سرق ، هو الذي يسرق ودائماً يعتدي على الناس ، فينشأ وليس في الدنيا أبغض عليه منه بهذه الطريقة .

لماذا يستعملون هذه الأساليب ؟ ولماذا يضطرون إلى هذه الأساليب ؟ لأن فيه حَرْف عن الفطرة ، والحرف يحتاج إلى مثل هذه الروافد ، أما الذي يبني على أخلاقيات الإسلام وعلى آداب الإسلام وعلى عقائد الإسلام الصحيحة فهو معافي من ذلك كله ؛ لأنك تبني على أصول قائمة وأسس ثابتة ، والعمل الذي يقوم به ليس بناء من الأساس وإنما تكميل لشيء قائم .

فهذا أمر - حقيقة - مفرح جداً لمن أكرمه الله ﷻ وحباه ، يعني يكفي في الطفل أن لا يُكذَّب عنده؛ يبقى صادقا، أن لا يُخلف الوعد عنده؛ يبقى أميناً ، فإذا كنت تريد أن تربيته على الأمانة وذكرت له بعض الأحاديث هذا تكميل ، لكن الذي يحرف الابن عن هذه المعاني هذا هو الذي يحتاج إلى تلك الأمور وتلك المغالطات وذلك الكذب إلى غير ذلك ، فهذه من النعم العظيمة والفوائد الجليلة التي تستفاد من هذا الحديث .

((ثم اقرأ أبو هريرة رضي الله عنه قول الله وَعَلَيْكَ ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾)) ؛ وهذا جزء من الآية التي هي عنوان

هذا الباب ، قال تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠) مُنْبِيِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ ؛ هذا السياق بتمامه في سورة الروم تأملوه فإن فيه فائدة عظيمة ، بل ذكر لركائز عظيمة جداً للسلامة من التفرق والانحراف ، ولا أطيل الكلام في تفصيلها لكن أشير إليها إجمالاً ؛ السلامة من التفرق يكون بأمر ذكرت في هذا السياق المبارك العظيم :

﴿الأمْر الأول﴾ : إقامة الوجه للدين بالاستسلام لله وحسن التوجه إليه وقصده ﷻ بالعمل وإخلاص الدين له وَعَلَيْكَ.
﴿الأمْر الثاني﴾ : أن يكون الإنسان معوِّداً نفسه دائماً وأبداً على الميل والانحراف والتجاني عن الباطل ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ ؛ فيكون بهذه الصفة متجاني متباعد، كلما يمر عليه باطل أو انحراف أو زيغ يميل عنه ويتبعد عنه ولا يقصده .

﴿الأمْر الثالث﴾ : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ؛ تعاهد العلم والعناية به والعناية بالتعلم والفقه في الدين ، فهذا من أعظم الأمور التي يُحفظ بسببها العبد بإذن الله ﷻ ، ولا يترك الجهل يلعب به ويعبث به في أودية الباطل والضلال ؛ بل يتفقه ويتعلم .

﴿الأمْر الرابع﴾ : الإنابة إلى الله ﴿مُنْبِيِينَ إِلَيْهِ﴾ ؛ والإنابة هي الرجوع إلى الله ، والإنسان كثير الخطأ ، فيه الخطأ ، فيه التقصير ((كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ)) ، فيعوِّد نفسه دائماً على الإنابة وهي الرجوع إلى الله .

﴿الأمْر الخامس﴾ : تقوى الله وَعَلَيْكَ ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ ؛ في السر والعلانية ، في الغيب والشهادة ، بفعل ما أمر وترك ما نهي عنه وزجر ، ((اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ)) .

﴿الأمْر السادس﴾ : إقام الصلاة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ ، والصلاة إقامتها كما أمر الله من أعظم أسباب حفظ العبد وسلامته ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ؛ وهي من أعظم الأسباب لحفظ العبد عن الانحراف والضياع ولا سيما إذا أقبل على الله في صلاته بخشوع وصدق مع الله تبارك وتعالى .

﴿الأمْر السابع﴾ : البعد عن الشرك والبراءة من المشركين ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

فبهذه الأمور يسلم الإنسان من التفرق ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ . وبهذا السياق المبارك تعلم أن اجتماع كلمة المسلمين واتحاد صفهم لا يكون إلا على هذه الأصول ، عندما تجتمع

فيهم هذه الأصول يتحقق فيهم الاجتماع ، وإذا أخلّوا بهذه الأصول تفكك من اجتماعهم بحسب إخلالهم بها ، ولهذا كم نحتاج إلى أن نقرأ مثل هذا السياق المبارك ونجاهد أنفسنا على تكميله وجبر ما يكون فينا من نقص أو خلل فيه أو في شيء من جوانبه ، ويمكن أيضا مطالعة كلام أهل العلم في كتب التفسير لهذه الآية ونظائرها مما جاء في كتاب الله ﷻ .

ثم بعد ذلك انتقل المصنف رحمه الله إلى حديث حذيفة الطويل ؛ أيضا في تقرير معنى إقامة الوجه للدين وكيف يسلم الإنسان ، مع أن أمامه في حياته تغيرات ومتغيرات وأمور وفتن متنوعة ، والمصنف رحمه الله يريد أن يبينه بذلك أن إقامة الوجه للدين يحتاج إلى مجاهدة مستمرة من العبد ليسلم مما سيُمرّ به من الصواد والصوارف التي تحرف الإنسان عن دينه والشور التي يلقاها ، وقد قيل «ليس العجب ممن هلك كيف هلك ولكن العجب ممن نجا كيف نجا» ، الصوارف من حول الإنسان كثيرة جدا فالعجب في نجا الإنسان من هذه المهلكات ، فهذا باب إقامة الوجه للدين حنيفا يحتاج إلى أمور كثيرة جدا يعتني بها العبد يحفظها ويحافظ عليها حتى يسلم له دينه ، وسيأتي في هذا تفاصيل نافعة ومفيدة جدا في الحديث الآتي حديث حذيفة .

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد .